أبناء السلطان

صدرت حكاية "أبناء السلطان" الشعبية في العام 2008، عن منشورات مركز أوغاريت الثقافي في رام الله- فلسطين، وهي من إعداد الدكتور نمر سرحان، ورسومات منار بعيرات، وبصفحات غير مرقمة.

بداية لا بدّ من التذكير بأن الأديب الدكتور نمر سرحان هو أحد أبرز الباحثين الفلسطينيين في الفولكلور الشعبي- فهو صاحب "موسوعة الفولكلّور الفلسطيني"، كما أنه أحد كتّاب مجلة "الأفق الجديد" الّتي صدرت في القدس في ستينيات القرن العشرين.

وحكاية "أبناء السلطان"، الّتي نحن بصددها هنا، هي إحدى الحكايات الشعبية العربية، وبما أن التراث الشعبي جزء من الهوية الوطنية لشعوب الأرض كافة، فإنه يجدر التنويه إلى أن التراث الشعبي العربي لا

obeikandl.com

يلقى ما يستحقه من جمع وتدوين ودراسات بحثية، مع التقدير للجهود الفردية الّتي قام ولا يزال يقوم بها بعض الباحثين والدارسين في طول العالم العربي وعرضه، وكذلك بعض المؤسسات مثل جمعية إنعاش الأسرة في البيرة، والّتي صدرت عنها عدة دراسات وأبحاث فلكلورية، كما تصدر عنها مجلة "التراث والمجتمع" المختصة بالموروث الشعبي، فإن ذلك ليس كافيًا، ولا يتناسب مع حجم وغنى تراثنا الشعبي العربي.

وقد سبق وأن ناقشنا في ندوة اليوم السابع في المسرح الوطني الفلسطيني، في القدس، عدة حكايات شعبية من الّتي جمعها الباحث الدنماركي (أندرسن)، المولود قبل أكثر من مئة عام، والّتي تعيد المؤسسات الثقافية في بلاده طباعتها وترجمتها إلى لغات عالمية ومنها لغتنا العربية.

ومع أن "الحكايات الشعبية" حكايات مسلّية كما هو حال جميع الأعمال الأدبية، فإنني أستغرب أن يضع الناشر على الصفحة الأولى من الحكاية عبارة "حكاية شعبية للأطفال"، فهل جاءت هذه العبارة من باب أن الحكايات الشعبية غالبًا ترويها الجدّات لأحفادهن الأطفال قبل النوم؟! ففي الحكايات الشعبية خيال واسع يفوق خيال الأطفال، ومع أهميتها للأطفال، فإنه لا يمكن أن نعفي الكبار من دراستها واستخلاص العبر والحكم من بين ثناياها، فعلى سبيل المثال، فإن حكايات "ألف ليلة

وليلة" المترجمة إلى عشرات اللغات العالمية، لا تزال تثير اهتمام الدارسين والباحثين في مختلف أرجاء العالم. وكذلك بعض السير الشعبية مثل: "سيف بن ذي يزن"، و"أبو زيد الهلالي"، و"عنترة"، وغيرها. وأيضًا "كليلة ودمنة" الّتي ترجمها إلى العربية ابن المقفع عن الفارسية.

ومعروف أن الآداب الشعبية، ومن ضمنها الحكاية، لم توضع عبثًا، بل هي تحمل ثقافة الشعب الّتي أنتجها في مرحلة من مراحل حياته وتطوره.

وعودة إلى حكاية "أبناء السلطان"، الّتي تتحدث عن سلطان له زوجتان، واحدة شريرة شُغلها الشاغل أن تضمن وراثة العرش لابنها بعد وفاة زوجها المريض، في حين أن الزوجة الطيبة كان همّها العناية بزوجها السلطان المريض. ولهذا فإن الزوجة الشريرة لجأت إلى كبير السحرة، طالبة المساعدة في تحقيق هدفها، فأعطاها طائرًا سحريًّا كي تذبحه وتطبخه وتطعمه لابنها، وعند موت السلطان، فإن طائر السعادة الذي سيطلقه الناس سيحطّ على رأس الابن الذي أكل الطائر السحري، وبالتالي سيصبح هو السلطان.

وعندما ذهب ابن الشريرة للصيد مع إخوته مصطحبًا الطائر السحري المطبوخ، لم يكن جائعًا، فأكله إخوته. وعندما تفرقوا للصيد بعد مقابلة امرأة عجوز لم تنحز بنصيحتها لأيّ منهم. وصل كبيرهم

(سالم) إلى مدينة عامرة بسكانها المجتمعين لاختيار سلطان وريث لسلطانهم المتوفى، وعندما أطلق كاهنهم طائر السعادة حطّ على رأس (سالم)، فكرّروا محاولاتهم أكثر من مرة وكانت النتيجة واحدة، فجعلوا (سالمًا) سلطانًا عليهم.

أما الابن الثاني (سلمان)، فقد وقع في فخّ قبطان سفينة على شاطئ بحر، فدعاه إلى جولة بحرية وفي نيته أن يلقيه في البحر كي تسير سفينته بسلام. وفي السفينة التقى بشاب حبيس في غرفة شبيهة بالسجن، فأخبره بنيّة القبطان، فهربا من السفينة بقارب نجاة، حتى وصلا جزيرة أقزام سكانها يقتتلون، "فانضما إلى الفريق الأكبر وهزما الفريق الآخر، وأصبح سلمان ملك الأقزام، والسجين وزيرًا عنده".

في حين وصل الابن الثالث (سويلم) إلى غابة كثيفة، فرأى عربيدًا أسود يطارد أفعى، فقتل العربيد، وكافأته الأفعى بأن "أعطته نايًا، إذا عزف عليه وصل إلى ما يتمنّاه"، ومشى في طريقه حتى وصل مدينة فيها قصر من جماجم البشر، وذلك أن للسلطان بنتًا لا تضحك، ومن لا يستطيع إضحاكها يقطع رأسه ويضيف جمجمته إلى جماجم الآخرين، واستطاع (سويلم) أن يضحكها عندما استحضر بوساطة الناي السحرية طفلة بثلاثة أنوف، "وعلى الفور أمر السلطان بإقامة حفل زواج كبير، ومنح زوج ابنته مالًا وقصرًا فخمًا".

أما الابن الرابع (مُسلّم)، ويعتقد أنه ابن الشريرة، فقد وصل إلى سلطنة أخيه سالم الذي زوّجه أجمل فتيات سلطنته.

وبعد شهر التقى الإخوة عند شجرة الخروب الّتي تفرّقوا من عندها، وعادوا إلى بلادهم، فوجدوا "أن الزوجة الشريرة قد استولت على العرش بعد وفاة أبيهم وتزوجت من وزيره، جلسوا معًا وتذاكروا في الأمر، قال سالم مخاطبًا أخاه الصغير: يا أخي إنها أمّك وأمّنا جميعًا ولا سبيل إلى عمل شيء الآن، سندعو الناس إلى حضور انتخاب الملك الجديد، وسنقبل بأي شخص يحطّ على رأسه طير السعادة". وفي اليوم التالي حطّ طير السعادة على رأس(سالم)، فرضي به الجميع ملكًا وعاش الجميع في هناء وسرور".

ويلاحظ في هذه الحكاية أن الزوجة الشريرة لم تنجح في مرادها، فوراثة العرش هي من حق الابن البكر للملك، كما هو متعارف عليه في الأنظمة الوراثية، ولو حصل عكس ذلك، فإن الأمر سيؤدي إلى خلافات ستعكر صفو الجميع، وهكذا فإن الأحداث سارت في الحكاية بهذا الاتجاه السلمي، وأعادت الحقّ إلى نصابه ليعيش جميع الإخوة في هناء وسعادة.

ويلاحظ أن الحكاية الخرافية فيها دعوة للمحبة، وخصوصًا بين الإخوة، فجميع أحداثها دارت بسلاسة لخدمة الهدف الرئيس دون

استعمال للعنف، حتى زوجة السلطان الشريرة الّتي استأثرت بالحكم بعد وفاة زوجها في غياب أبنائه، وتزوّجت الوزير، فإنه لم يتمّ إيذاؤها من ابنها أو من أبناء زوجها، فسالم الذي أصبح سلطانًا اعتبرها أمّه، مثلما هي أمّ أخيه ابنها.

(ج.س)

obeikandl.com